

مصنف مطوية من التاريخ الاسلامي

العرب في غاليس وسويسره

للأستاذ محمد عبد الله عنان

منذ عامين كشفت الباحث الأثرية في وادي اللوار بفرنسا على مقربة من مدينة تور ، عن عظام بشرية ، وسيوف ودروع قيل إنها عريية ؛ ورأى فريق من الباحثين الأثريين أن هذه الآثار هي على الأرجح من مخلفات الموقعة العظيمة التي نشبت بين العرب والفرنج في سهول نهر اللوار منذ ألف ومائتي عام (٢٧٣٢) ، وارتد فيها العرب أمام جيوش كارل مارتل زعيم الفرنج بعد أن قتل قائدهم عبد الرحمن الغانقي ، وأن اكتشافها يأتي ضياء جديداً على حقيقة المكان الذي نُشبت فيه الموقعة ، والذي مازال ماثراً خلاف بين المؤرخين

وتلك الموقعة الشهيرة هي التي تسميها الرواية الاسلامية بموقعة بلاط الشهداء أو موقعة البلاط ، لكثرة من استشهد فيها من عطاء المسلمين وقادتهم ، وتعرف في الرواية الفرنجية بموقعة تور أو بواتيه لأنها وقعت في السهول التي تمتد بينهما ؛ وتضع الرواية الاسلامية تاريخها في رمضان سنة ١١٤ من الهجرة ، متفقة بذلك مع الرواية النصرانية التي تضع تاريخها في أكتوبر سنة ٢٧٣٢ . وقد كانت هاتيك السهول التي تمتد بين تور وبواتيه وتشرف على ضفاف اللوار هي أقصى ما بلغه العرب في فتوحاتهم في قلب فرنسا ؛ وقد عبر العرب جبال البرنيه لأول مرة عقب افتتاحهم لاسبانيا ، وغزوا سبانيا (أو لانجدوك) سنة ٩٤ هـ (٢٧١٣) واستولوا على مدينة قرقشونة ونهر أربونة ؛ ثم توالى عبورهم بعد ذلك لجبال البرنيه وتوالى غزواتهم في غالة أو غاليس (جنوب فرنسا) ، في سبانيا وفي أكويتين ، ثم في وادي الرون شمالاً حتى بورجونيه ؛ وأنشأوا من فتوحاتهم في غاليس ولاية سميت بالشر أو الرباط وعاصمتها أربونة ؛ ولما ارتدوا أمام الفرنج في بلاط الشهداء ، احتفظوا مدى حين بفتوحاتهم في

غاليس ؛ واستمر لظي الحرب يضطرم بينهم وبين الفرنج في تلك الأثناء مدى ربع قرن ، والفرنج يستردون مدسهم وأراضهم تباعاً من أيدي الغزاة ، حتى انتهوا أخيراً بالاستيلاء على أربونة آخر معقل إسلامي في غاليس سنة ٢٧٥٩

وكان ذلك خاتمة الفتوحات الاسلامية المتترة في فرنسا ، ولكنه لم يكن خاتمة الغزوات الاسلامية أو خاتمة النفوذ الاسلامي في تلك الأثناء . ذلك أن المسلمين عادوا فنفذوا إلى جنوب فرنسا ، ثم إلى بيمون وسويسرة ، وغلبوا على كثير من المواقع والأراضي في تلك الأثناء أحقاباً طويلة ، ولكنهم كانوا في تلك المرحلة جماعات مستقلة مغامرة تعمل لحساب نفسها أكثر مما تعمل لحساب الحكومات التي تنتمي إليها ، وكانوا مستعمرين أكثر منهم غزاة ؛ وتلك صفحة من تاريخ النضال بين الشرق والغرب والاسلام والنصرانية قلما تعنى بذكرها الرواية الاسلامية ، وإن كانت الرواية النصرانية تشير إلى كثير من وقائعها وتفاسيها . وسنمضي في هذا الفصل بسرد حوادث هذه الصفحة الغريبة المجهولة ، وبما كان للاستعمار الاسلامي في تلك الأثناء من الخواص والآثار

كانت أول غزوة إسلامية لفرنسا بعد قيام الدولة الأموية في الأندلس ، في عصر أمير الأندلس هشام بن عبد الرحمن الأموي ، ففي سنة ٢٧٩٣ دعا هشام إلى الجهاد ، وأرسل إلى فرنسا جيشاً بقيادة وزيره عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث ، فعب البرنيه ، وزحف على أربونة ، فلما لم يستطع افتتاحها ، ارتد إلى قرقشونة ؛ وكان شارلمان (أو كارل الأكبر) ملك الفرنج يشتغل يومئذ بحاربة خصومه على ضفاف الدانوب بعيداً عن فرنسا ؛ فتأهب أمير أكويتين لرد العرب ، وأوفد لمحاربتهم جيشاً بقيادة الكونت دي تولوز ، فالتقى الفريقان في مكان يسمى « قيل دني » بين أربونة وقرقشونة ، ونشبت بينهما موقعة غير حاسمة ارتد على أثرها العرب إلى الجنوب مثقلين بالعتائم . وتشير الرواية الغربية إلى تلك الغزوة وتقول إن المسلمين استولوا خلالها على أربونة^(١) ، ولكن الروايات الفرنجية المعاصرة لا تذكر شيئاً عن هذا الفتح

(١) القرى في مع الطبع ١ ص ١٥٨

واضطرب شارل « الأصلح » ملك فرنسا أن يعقد الصلح معهم ؛ ومن المرجح أن هذه النزوة كانت ذات صفة رسمية ، وأن حكومة قرطبة هي التي نظمتها أو أوجت بتنظيمها . وفي سنة ٨٦٩ ، هاجمت شراذم من البحارة العرب بروقانس مرة أخرى ، واستولت على جزيرة كامارج الواقعة في مصب الرون ، وأسرت أسقف آرل الذي كان يقيم فيها ، وعادت مثقلة بالغنائم والأسرى

— ٢ —

ولقد أذكى نجاح هذه الغزوات التوالي في نفوس الغامرين والمجاهدين من مسلمي الأندلس وأفريقية حب التوغل في هاتيك الأنحاء ورغبة استثمارها والاستقرار فيها . وكانت أحوال غاليس (جنوب فرنسا) قد اضطربت يومئذ ، وغلب سيد من سادة تلك الأنحاء يدعى بوسون على ولايتي دوفينه وبروقانس وتلقب بملك آرل ، وقام يناوئه بعض منافسيه ، ونشبت بينه وبينهم حروب أهلية (نحو سنة ٨٩٠) . ففي تلك الآونة رست سفينة عربية صغيرة عليها عشرون بحاراً من المسلمين في خليج جريغو أو خليج سان ترويه ، ونزلوا إلى الشاطئ ، ولجأوا إلى غابة كثيفة تظللها الجبال ، ثم هاجموا بعض الضياع القريبة وفتكوا بسكانها . ولما رأوا منعة معقلهم سواء من جهة البرأم البحر ، عولوا على الاستقرار فيه ، ودعوا إخوانهم من الثغور الإسلامية القريبة إلى القدوم ؛ وأرسلوا في طلب العون والتأييد من حكومتى الأندلس وأفريقية ؛ فوفد عليهم كثير من الغامرين البواسل ، ولم تمض أعوام قلائل حتى استقروا في ذلك المكان وأنشأوا لهم سلسلة من المناقل والحصون أمنعها وأشهرها حصن تطلق عليه الرواية الفرنجية المأخرة اسم (فرا كسنتم) Fraxintem والمظنون أنه هو المكان الذي تقوم عليه اليوم قرية « جارد فرينيه » (١) Garde-Frinet الواقعة في سفح جبال الألب ، وما زالت ثمة آثار تدل على قيام معقل قديمة في ذلك المكان . ولما كثر جمعهم واشتد ساعدم ، أخذوا في الاغارة على الأنحاء المجاورة ، وأصبحوا قوة يخشى بأسها ؛ وسمى اليهم بعض الأمراء والسادة المتنافسين يستظهرون بهم بعضهم على بعض ، فلبوا الدعوة ،

وفي سنة ٢٨٠٦ هاجمت شردمة قوية من البحارة العرب جزيرة كورسيكا ؛ فبعث سن بن شارلمان ملك إيطاليا أسطولاً لقتالهم ، ولكنهم هزموه وقتلوا قائده ، وحصلوا كثيراً من الغنائم والسبي . ولم يمض عامان حتى عاد البحارة العرب إلى غزو شواطئ كورسيكا وسردانية . ثم توالى غزواتهم إليها بعد ذلك ؛ وكانت شواطئ فرنسا الجنوبية عرضة أيضاً لمثل هذه الغزوات البحرية الناهبة ، وكان قوام هذه الغزوات عصابات قوية مغامرة من مسلمي الأندلس وأفريقية تجوس خلال هذه المياه في سفن خاصة وتتخنن في هذه الشواطئ ، وتعود مثقلة بالغنائم ؛ وكان البحارة المسلمون كالبحارة النورمانيين ، رعب هذه الشواطئ ، وكانت أخبار غزواتهم تدوى في جنوب فرنسا ، وتعنى الروايات الفرنجية المأخرة ، ولا سيما الروايات الكنيسية بتدوين أخبار هذه الغزوات ، وتبالغ في تصوير عصفها ووقوعها ، وتقول لنا إن البحارة العرب ذهبوا في جرأتهم إلى حد التجول في مياه الاطلنطيق ومهاجمة شواطئ فرنسا الغربية ، وإن سفينة عربية كبيرة اجتازت في ذلك الحين مياه الاطلنطيق حتى مصب نهر اللوار (١)

وفي سنة ٨٣٨ م خرج أسطول عربي من ثغر طراكونه (تراجونا) ومياه البليار ، ورسا في مياه بروقانس ، وهاجم ثغر مرسيليا وماحوله من المواقع والأراضي ، وأخذ فيها ، وحمل كثيراً من الغنائم والسبي . وكان على عرش فرنسا يومئذ لويس (ل ديونير) بن شارلمان ، وكان ملكاً عاجزاً ضعيفاً ، فلما توفي في سنة ٨٤٠ م ، اضطربت أحوال المملكة ، وضعفت الثغور ، فانهز البحارة العرب تلك الفرصة ، وغزوا بروقانس عند مصب نهر الرون ، وهاجموا مدينة آرل ، وخربوا معاهدتها . ثم توالى غزواتهم بمد ذلك في تلك المياه ، وهاجموا مراراً مرسيليا وآرل . وفي سنة ٨٥٠ ، في عهد عبد الرحمن بن الحكم أمير الأندلس ، عبر المسلمون جبال البرنيه مرة أخرى بقيادة موسى حاكم سرقسطة وغزوا سبتانيا ، وأخذوا في نواحيها ،

(١) جمعت أقوال الروايات الفرنجية والكنيسية المأخرة في موسوعة Bouquet . بصورها اللاتينية أو الفرنسية القديمة ، وعليها جل اعتمادنا في استخراج حوادث هذا الفصل

كل عام ألوف من الحاج الذين يقصدون الى زومة ، واقتضوا
سهم الضرائب الفادحة لئيسمحوا لهم بالزور

— ٣ —

ثم اتخذ العرب خطوة جديدة في سبيل التقدم الى اواسط
أوربا ، فدفعوا غزواتهم الى بيبمون ومونفرايو . وتقول لنا الرواية
الكنتسية المعاصرة إنهم وصلوا في أوائل القرن العاشر الى حدود
ليجوروا على شاطئ ، خليج جنوه ؛ وروى ليوتيراند وهو كاتب
معاصر أن العرب غزوا سنة ٩٠٦ مدينة « آكي » من أعمال
مونفرايو الشهيرة بمحاملها (وهي على مقربة من تورينو) ، ثم
غزوها ثانية سنة ٩٣٥ بقيادة زعيم يدعى « ساجيتوس » وانكسهم
هزموا وحرقوا ؛ وفي هذا الوقت أيضاً ، نزلت شردمة قوية من
البحارة الأفريقيين بساحل جنوه ، وقتلت عدداً كبيراً من أهلها ،
وأمرت جموعاً كثيرة من النساء والأطفال

وفي سنة ٩٣٩ غزا العرب منطقة « قاليه » في جنوب
سويسرا ، ونهبوا دير « أجون » الشهير ، وغزوا في الوقت نفسه
منطقة « تاراتيز » من أعمال ساقوا الوسطى ، ثم اتخذوا منطقة
« قاليه » قاعدة للأغارة على الأراضي المجاورة في سويسرا وإيطاليا
ونفذوا منها الى اواسط سويسرا ثم الى « جريزون » في شرق
سويسرا ، ونهبوا دير ديزنتي أشهر وأغنى الأديار السويسرية ،
ونهبوا طائفة أخرى من الأديار والكنائس الغنية . وفي بعض
الروايات أيضاً أن العرب وصلوا في غزوتهم الى بحيرة جنيف ،
وجازوا الى مفاوز جورا الواقعة في شمالها . وكانت سويسرا يومئذ
من أقاليم مملكة بورجونيه ، وملكها يومئذ « الملكة برت »
الوصية على ولدها الطفل كوزاد ، فارتدت حين اقتراب العرب
الى حصن ناه في جهة نيوشاتل

وفي سنة ٩٤٠ غزا العرب فريموس ، وكانت يومئذ من
أكبر وأمنع ثغور فرنسا الجنوبية ؛ وغزوا أيضاً ثغر طولون ،
ففر السكان الى الجبال ، وعاث العرب في تلك الأنحاء ، وخرّبوا
المدن والحصون ، وأحرقوا الأديار والكنائس

ولما اشتدت وطأة العرب في جنوب فرنسا وبلغ السخط
من غزواتهم وعيبتهم ذروته ، اعترمت سادة الجنوب وعلى رأسهم
هوج ملك بروفانس أن يسندوا كل ما في وسعهم لسحق ذلك

وانزعوا من بعض السادة أراضيهم ، وأعلنوا أنفسهم سادة في
الأنحاء المغلوبة ؛ وبشوا الذعر والروع في جنوب بروفانس حتى
وصفهم كاتب معاصر « بأن واحداً منهم يهزم ألفاً واثنين
يهزمان ألفين » (١)

وكانت هذه أول خطوة في استعمار العرب لجنوب فرنسا .
وفي خاتمة القرن التاسع اتخذ المستعمرون خطوة أخرى . فتقدموا
نحو جبال الألب غرباً وشمالاً . وكانت مملكة آرل قد ضعفت
واضمحلت ، وخلف بوسون ولده لويس ، ولكنه ذهب الى
إيطاليا ليحارب الى جانب حلفائه ، فهزم هناك وأسر ، وتركت
مملكته بلا دفاع ؛ وساد الاضمحلال والفوضى في غاليس كلها .
فانهز المسلمون تلك الفرصة ، واخترقوا مفاوز دوفينه ، وعبروا
« مون سني » ثم ممرات الألب الفرنسية ، واستولوا على دير
نوقاليس الشهير الواقع في وادي « سيس » على حدود بيبمون ،
وفر الأجار في مختلف الأنحاء (سنة ٩٠٦ م) وأغار المسلمون
على القرى والضياع المجاورة ونهبوها وفتكوا بأهلها ، وأسر
بعضهم وأخذوا الى « تورينو » (بإيطاليا) وسجنوا في دبرها ،
ولكنهم استطاعوا أن يحطموا أغلالهم ، وأضرموا النار في الدير
وفي المدينة ، وفروا عائدين الى زملائهم ؛ واشتد بأس العرب في
تلك الأنحاء ، واحتلوا معظم ممرات الألب ، فسيطروا بذلك على
طرق المواصلات بين فرنسا وإيطاليا ؛ ثم انحدروا من آكام الألب
الى سهول بيبمون ، وأغاروا على بعض مناطقها

وفي سنة ٩٠٨ نزلت سرية قوية من البحارة العرب في
شاطئ بروفانس على مقربة من « إيممورت » ونهبت دير بسالمودي .
وكانت الأديار والكنائس يومئذ مطمح أنظار الغزاة لما كانت
تفص به من التماثيل والأموال . وانتشر العرب بعد ذلك في جميع
الأنحاء المجاورة ، واجتاحوا كل ما في طريقهم من البساتين ؛
وهاجوا مرسليليا وهدموا كنيسها ، وغزوا ايكس ، وسبوا
النساء وتزوجوا بهن ليكثر نسلهم ويقووا به ، وانضم اليهم كثير
من النصارى المغائبين من أهل هذه الأنحاء ؛ وهجر السادة
والأغنياء حصونهم وقصورهم والتجأوا الى الداخل خشية القتل
أو الأسر ، وأغلق العرب طريق الألب الى إيطاليا . وكان يمر بها

٨ - الشخصية

للأستاذ محمد عطية الأبراشي

المفتش بوزارة المعارف

(٣) الصور بالواجب :

من الوسائل التي تساعد على التنفيذ ، وعلى تقوية الشخصية العملية ، تلك الصفة الحية وهي الشعور بالواجب ، وإجابة نداء الضمير ؛ فالإنسان حينما يشعر بوازغ نفسي بأنه يجب عليه أن يفعل كذا ، أو بأنه يجب عليه ألا يفعل كذا ، فإن هذا الشعور وحده يرمي إلى مغزى خلقى ، ويستدعي نشاطاً عقلياً لفعل الشيء أو محاربهه ، فهو بمثابة مؤثر داخلي يؤثر فيه تأثيراً قوياً . وإن إجابة هذا المؤثر أو الباعث النفسي خير كفيل لاستنهاض الهمة ، ومضاعفة المزية . قال « إمرسون » إن الإنسان إذا استحثه الواجب لأن يقوم بعمل ما ، قام به « وليس الشعور بالواجب أو تلبية نداء الضمير ، أو الصوت الداخلي ، مقصوداً على طبقة دون أخرى ، ولا على جيل من الأجيال ، ولا سن من الأسنان

وإذا تذكرنا أن الشعور بالواجب يتضمن حكم النفس وضبطها ، أمكننا أن ندرك العلاقة بين الشخصية وبين الشعور بالواجب وإجابة الداعي النفسي ؛ ففي كل أمر من أمور الحياة نجد أن هدوء البال ، وراحة الضمير ، والاطمئنان ، والجمال - ثمرة من ثمرات الطاعة ، ومراعاة انقوائين العملية والفنية

وإننا إذا بحثنا في تاريخ العطاء والأدباء والفنانين ، وجدنا أن ذوى الشخصيات الخالدة (في التاريخ) كانوا من ذوى الضمائر الحية الحساسة ، الذين يجيئون نداء الضمير ، ويصغون إلى صوت الله فيهدون بهديه ، وكانوا يحسون بالواجب فيقومون به ، ويعملون على تنفيذه . وكثيراً ما يكون الضمير الحى والشعور بالواجب سبباً في إنقاذ الإنسان من صروف الحياة ، ومن السقوط إلى الهاوية فلا يكون فريسة للنفس الشريرة . فكل إنسان تفتح

المدو المزيج ؛ ورأى هوج أن يبدأ بافتتاح حصن فرا كسنيه (فرا كسني) الذي يمتنع به العرب ويتخذونه قاعدة لتأمين مواصلاتهم مع اسبانيا وأفريقية ، وقاعدة للأغارة على الداخل ، وكتب الى صهره امبراطور تسطنطينية يطلب منه أسطولاً من قاذفات النار اليونانية حتى يستطيع مهاجمة العرب من البر والبحر معاً . فلبى نداءه ، وفي سنة ٩٤٣ رسا اسطول بيزنطي في مياه ثرويه ، وزحف هوج في نفس الوقت بميشه على فرا كسنيه ؛ وهوجم العرب من البر والبحر بمنتهى الشدة وأحرقت سفنهم ؛ ونفذ هوج الى الحصن بعد قتال رائع ، وفر العرب الى الآكام والرلي ، وكاد يحرق سلطانهم في تلك الأنحاء . ولكن حدث عندئذ أن علم هوج أن خصمه ومنافسه يراجميه قد عاد الى إيطاليا لينازعه في انتزاع عرشها ، فصرف هوج الأسطول ، واضطر أن يعقد الصلح مع العرب بشرط أن يبقوا في رؤوس الألب وممراته وأن ينفقوا الطريق الى إيطاليا في وجه خصمه ؛ وبذلك استعاد العرب قلاعهم وسيادتهم في جنوب بروفانس

واحتل العرب آكام الألب وممراتها ، وفرضوا الضرائب الفادحة على المسافرين ، واستطاعوا بسيطرتهم على ممر سان برنار الكبير الموصل بين سويسرا وإيطاليا وغيره من الممرات والمائل الجبلية ، أن يحتاحوا الأنحاء المجاورة ، وأن يبنوا فيها الدعر والروع واستقرت منهم جموع كبيرة في السهول والضياع القريبة من معالقتهم ، وتزوجوا بالنساء الأسيرات ، وزرعوا الأرض ، واكتفى أراء هذه النواحي بأن يحصلوا منهم بعض الضرائب ونفذ العرب أيضاً الى منطقة نيس إحدى ولايات مملكة آزل الجنوبية ، واجتاحوا ساطلي ، ليجوريا كله (جنوه) ؛ بل يظهر أن سرية منهم استقرت في نيس ذاتها ، وما زال في نيس

الى اليوم حتى يعرف بحى العرب Canton des Sarrazins

وأخيراً نفذ العرب الى قاب ولاية دوفينه وغزوا مدينة جرينوبل واحتلوها مدى حين ، واحتلوا واديا الحصيب ، « جريزثودان » الذي يجري فيه نهر الازير فرع الزون ، وفر أسقف جرينوبل وزملائه الى الشمال حاملين لرفقت قديسهم^(١)

للبحث بقية
محمد عبد الله عثمان
الحامى